THE BOOK WAS DRENCHED

خديجة

أم المؤمنين

﴿ تأليف ﴾

(السيد عبد الحميد افندي الزهراوي

مبعوث حماه (سورية)

﴿ نشرت متفرقة في مجلة المنار ﴾

« وجمعت منها في هذا الكتاب »

(الطبعة الاولى بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٨)

خديجة

أم المؤمنين

﴿ تأليف ﴾

(السيد عبد الحميد افندي الزهراوي)

مبعوث حماه (سورية)

﴿ نشرت متفرقة في مجلة المنار ﴾

« وجمعت منها في هذا الكتاب »

(الطبعة الاولى بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٨)

مقدمة تمهيدية

﴿ أو ﴾

اهداء السيرة

﴿ الى ﴾

(روح والدة المؤلف)



(ذكر الله تعالى والثناء عليه
والشكر له قبل كل شيء)

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار ، وتحركت أفلاك العلوم والاعمال ، وتعاقبت أسلاك الاجتماع والاحوال ، واذا فتحت كتب السير والتاريخ لا تجد ذكراً لعشر من دخلها ولا لعُشر عشرهم ولا للواحد في الالف ، ولا للواحد في ألف الالف منهم فلماذا يُعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم ويهملون الكثير منهم ؟

ليس بعجيب ما صنع المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم متشاكلو السيرة ، متشابهو الحالة والغاية ، على ما بين سيرهم من التغاير ، وبين أحوالهم من التفاوت ، وذلك أن حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهوا أو تعودوه من المطالب جل أو حقر ، فماذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها هكذا : « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معايشهم وعاشوا

خاضعين للغالب وذهبوا غير تاركين أثرا في هذه الدار الا إن كان ولداً على شاكلتهم »

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار فان في سيرهم للتاريخ ذخراً من غرائب الاستعداد الإنساني، وبدائع مظاهره، وجلائل مآثره، وامثلة التفاوت بين أفراده، والارتقاء والتكامل في مجموعه، بواسطة آحاد من جملته، بذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم، ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

واولئك الافراد صنوف: فرسول مبشر، وحكيم مبصر، وكاتب مفكر، وشاعر مذكر، وفاتح مغير، ومخترع محير، وكاشف منور، وباحث مصور، واجتماعي محور، وشرعي مقرر، ونصاح مبرر، ولساني مفسر، ومفضال ميسر

هؤلاء الصنوف أقطاب التاريخ على أخبارهم يدور، ومآثرهم مشارقه منها يستمد النور، ووراءهم في الذكر يأتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق، ومن عرفوا في عشيرة بطيب الاعراق، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ اذا لم تؤيد بمآثر . ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من أعمال أصحابها ممن كانوا كباراً في العيون لانهم أبناء أماجد مثلا وهم لم تجد لهم همة، ولم تؤثر عنهم منقبة، ويظهر لنا أيضا أن إعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد أو بالتصادف وذلك لان النفوس انما يغريها بالباقيات الصالحات

تذكار اهلها وتمداحهم ، وانما ينهنهها عن الخمول سرعة انطفاء الخاملين ، وطول اشراق الباقي ذكرهم في العالمين

ثم ان من لهم الباقيات الصالحات التي يبقون ويذكرون بها هم افضل الحداة بالنفوس وانهض بها الى المكرمات فحكاية أحوالهم هي أفضل مآخذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في أن يفهموا اقارئيهم كيف يتكمل الانسان وكيف يصير من الاقطاب اقطاب التاريخ

* * *

اللهم إني أستسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آبائنا ، وأستغفرك عن زلة زلها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثيرا من سير الأقطاب من أمهاتنا ،

لقد علمنا أن الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ، ذلك أننا نرى لهنّ عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمما عظيمة ، وهل للرجال ينابيع للمكارم غيرهذه العقول والقلوب والهمم ؟. ونرى الاديان اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل وما زال نصيبها منه كبيرا وتابعا لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ثم على حسب مرتبتها من محيطها . وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات

الماضيات اللاتي تصلح سيرهنّ أن تكون هدًى للرجال قبل النساء ، ولولا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتي نعلمهن أكثر وما اللاتي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ولكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة والغرب، الترك يعظمون اسمها والعرب ، وفارس والهند ، والافغان والسند ، وفي أرض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم ، واذا فتحت دفاتر المؤرخين عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة في ترجمة حالها ، وشرح خلالها ، ولكنا نحن شاكرون على هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فتهتدي بها على قلتها الى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار اذا كانت أشعته عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في ان اكافىء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكر ان عظيم فضلها عليّ هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه ولكن تراءى لي أنه يسرّها أن أعلن للملإ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ولم أجد أحسن طريقة الى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي احدى جدّاتها

فمن مدد تلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة

حال هذه السيدة أؤلف هذه القصة الحقيقية والى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي ، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه أستنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له به لذة وفائدة فلي حق أن أرجوه شيئا ولا أرجوه الا ان يكون مساعدا في اقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء أمهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهن نكون فلنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الامهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن !

خديجة ام المؤمنين

(مقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، وقد كان له دويّ قويّ وأثر كبير في آسيا وأوربا وأفريقيا وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً الى كلمة النبي الذى قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك وفوزهم بهذا الهجوم وانتصارهم وغلبتهم على الامم وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم وتكوّن ملكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانتيكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالا وجنوباً في أسرع ماعرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر كانه معتاد الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكر بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيه أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم انه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر ولدى التأمل نجد هناك جزئين تم بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهي ان أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشراف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت ان أقدم في هذه الاوراق لمحبي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقارئ على سيرتها ان أمر به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة

* * *

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة ، نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونلتفت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام انهم يعرفون أصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون انهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لا ندري ولكن يلوح لنا انه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

اما الباحثون عن انساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) الساميةو (٢) الاريانية و(٣) التورانية

وظاهر من هذا انهم لما أرادوا وضع اسماء للاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما لفق في حكاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكي لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجابها برؤية تماثيلها وما تماثيلها الا أساطير الاولين

اما نحن فنرى انه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتهينا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفد مراحل أعمارنا من غير ان نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً ، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز ان نطمع فيه

فاذا أردنا الآن ان نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء ان نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعها من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادىء على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني ؟ وما أغنى من يريد ان يعرف جيلاً كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

* * *

يقول المؤرخون ان العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى ، واما العرب العاربه فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يعجبني لان البائدة ليست موجودة حتى تعد وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد . وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلا ولم يذكروا لنا ممن هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قويم على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكروه ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها ، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر اذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلاً هو ثالث ثلثة أو ثاني اثنين اذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف ان هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتغر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثرون من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من ان النبي العربي عليه السلام كان اذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول « كذب النسابون » (١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح

اما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو ان العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهوران لقبائل الحجاز أصلا ، ولقبائل اليمن أصلا آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتتمته : قال الله تعالى « وقرونا بين ذلك كثيراً »

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هو أبو عرب الحجاز غالبا، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

وان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون، متقاتلون متذابحون، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع، ولا يد لهم فى الاعمال الاجتماعية ، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم الا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الاوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم "

نقول لصاحب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا ان نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقواداً كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقواداً وولاة من العرب، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس، والكنائس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا، وبيع اليهود ما جهلتهم، والفلسفة ما أنكرتهم، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

ان العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا. ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها أن يعني كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثر ماله انفرد بأهله وانضمت اليه الذرية ووضعوا لانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشان ان العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب. والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك انه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه وقال له: ممن الرجل؟ فقال «اني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر» قال يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي: مالك؟ قلت «لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك» قال «ان كنت من كرام العرب فسأعرفك» قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «اني من كرام العرب» قال فممن أنت؟ قلت «من مضر» قال «فمن الفرسان أنت أم من الارحاء؟» فعلمت انه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت بل من الارحاء» قال «أنت امرؤ من خندف» قلت «نعم» قال «من الارومة أنت أم من الجماجم؟» فعلمت انه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني اد بن طابخة . قلت «بل من الجماجم» قال «فانت امرؤ من بني اد بن طابخة» قلت «أجل» قال «فمن الدواني أنت أم من الصميم؟» فعلمت انه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم . قلت «من الصميم» قال «فأنت اذاً من بني تميم» قلت «أجل» قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين؟» فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بني عمرو وبني تميم . قلت «من الاكثرين» قال «فأنت اذا من ولد زيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم الذرا أم من الثماد؟» فعلمت انه أراد بالبحور بني سعد وبالذرا بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد . قلت «بل من الذرا» قال «فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة» قلت «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟» فعلمت انه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم . فقلت له «من اللباب» قال «فأنت من بني عبد الله بن دارم» قلت «أجل» قال «فمن البيوت أنت أم من الدوائر؟» فعلمت انه أراد بالبيوت ولد زرارة وبالدوائر

الاحلاف . قالت « من البيوت » قال « فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لابيك امرأتان فأيهما أمك ؟

* * *

ولقد غلط من ظنوا ان العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط كلا بل كان لهم حضارات وملوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق) مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان جهل تاريخ العرب أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحدث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباها فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار ابيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن اخته عمرو اللخمي جد الملوك المناذرة اللخميين .

والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام باربع مئة سنة وقيل أكثر من ذلك، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبنى بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة، وبنى بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء، ثم ملك الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأدرح والقسطل، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه، ثم ملك بعده المنذر الاكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول، ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة. ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك سموا ولده آل محرق ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر، وبنى قصر السويدا ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا وفي عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني

علي لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء . ثم ملك بعده النعمان بن الايهم بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم، ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحارث، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض

ملوك الحيرة اللخميين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجر بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبنى له قصراً بالبرية عظيما ومصانع . ثم ملك بعده اخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده اخوهما شراحيل بن جبلة ثم ملك اخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن اخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي اسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم

*
* *

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباذ المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شان الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرئ

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه ابوه على بني أسد بن خزيمة فبقي أمره متماسكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتاً منها

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه خلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد ابيه فاستنجد ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهربت منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن السماء فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضاً فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع أدراعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره الى ملك الروم قال قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقيال، وقد وقفت أمام الامم والاجيال، سنين من الدهر، لا يعرف لها حصر، لعمرك ان القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين، وانهم كانوا مشتتين، من غير ملك جامع ، ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير ان يكلف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم . وما نقل الينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله امام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

فمن شاء ان لا يثق بمنقول البتة لا اضرني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وانما يضره وحده . يقل استفادته من المنقول ، ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمعقوله .

ومن شاء ان يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيده شيئاً على ما أوضحت به ان العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم

* * *

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فان هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجةً للتردد في قبولها

وقد قلنا آنفاً ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلين معروفين عندهم ومجهول ما وراءهما وهما عدنان وقحطان ، فاما قحطان فقد أخذت ذريته

بحظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفىء مجدهم وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين

فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاننا نريد ان يتعرف القارىء بقوم خديجة الخصوصيين . ﴿ فعدنان ﴾ ولد له ﴿ معد ﴾ ومعد ولد له ﴿ نزار ﴾ وأولاد نزار أربعة ﴿ مضر ﴾ وإياد وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهوريهم مسيلمة الكذاب

وولد لمضر بن نزار ﴿ إلياس ﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاماً . ومن بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر ﴿ مدركة ﴾ وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس ﴿ خزيمة ﴾ وهذيل والى هذيل هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة ﴿ كنانة ﴾ وأسد والهون وولد لكنانة ابن خزيمة ﴿ النضر ﴾ وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بني عبدمناة بنو غفار ومن مشهوريهم أبو ذر ، وبنو بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهوريهم أبو الاسود الدئلي وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة ﴿ مالك ﴾ ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا ﴿ فهر ﴾ وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر ﴿ غالب ﴾ ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الحارث ومن مشهوريهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر ﴿ لؤي ﴾ وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو الادرم ومعنى الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب ﴿ كعب ﴾ وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة . ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله عليّ بن أبي طالب

وولد لكعب بن لؤي ﴿ مرة ﴾ وهصيص وعدي فمن هصيص

بنو جمح ومن مشهوريهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضاً بنو سهم ومن عدي بنو عدي ومن مشهوريهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب ﴿ كلاب ﴾ وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهوريهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهوريهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ﴿ قصي ﴾ وزهرة ومن ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيماً في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجدهم

وولد لقصي بن كلاب ﴿ عبد مناف ﴾ وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة ومن مشهوريهم النضر ابن الحارث كان من اشداء اعداء النبي (ص) ، ومن عبد العزى ايضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التي نروي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي ﴿ هاشم ﴾ وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس امية ومنه بنو امية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان مؤسس الملك الاموي . ومن المطلب ابن عبد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ﴿ عبد المطلب ﴾ ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد المطلب ﴿ عبد الله ﴾ وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ﴿ محمد ﴾ النبي عليه الصلاة والسلام

الفصل الأول

(مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه عجب ، قصي عن العمران ، في واد غير ذي زرع ، لا تنساب فيه الأمواه ، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم للصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبدله الله جمالا معنويا، وكساه جلالا روحانياً . فالأفئدة تهوي اليه، والمطايا تزجى له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد ، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا ان نحزر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل .وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرّفوها ويحجون اليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور أمّا من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان وانما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هذا لم يزدد على طول القرون الا تشريفاً وتكريماً ولم يتغير فيه الا أشكال الابنية وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بني هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية يدانها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء الا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم ورقة العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك انهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كوّنوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسرّ في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالاخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كانهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً ان كلّ فرد من أفراده تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبة، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه أذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع راقٍ في الدنيا وخليقاً ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت

بديع جماله، وأشرأبت الى عظيم كماله، ثم تاقت الى تعريف العالم بما أ كنت تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد وقع ذلك فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري، من ينظفه من تلك العيوب التي اشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استمدادهم

اما الجمهورية التي أشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك انهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثم اجمعوا امرهم على ان يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها تعد من مناخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف وبذلك أعطوا الاعمال التي يجدبها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها، وعظموا في أنفسهم حقها، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لغواً اذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض

تضامنهم وهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كانوا يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام موقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم مايطيقونه كشفوا اللثام عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وان نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الاناة وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ومن فل الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً .

ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشيء من حدته التي كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في اهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

ثم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الأمر وذلك

انه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميرياً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هـذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه قال حناطة انه أوصاني بأنه يريد مواجهتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسـامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذه الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول مايبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هـذا الأرب فرد علينا أبلنا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في الاموال وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إنما نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه فقال له انه ماكان ليمتنع مني فأجابه أنت وذاك ورد ابرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصرّا على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال ، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب فان أبرهة لما أصبح وتهيأ لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم ابرهة وتذكر ما انذره به ذلك الرجل الجليـل السني

الطلمة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخمدت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

﴿ بيوتات قريش وخصائصها ﴾

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم ،

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابة ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ، والسفارة ، والايسار ، والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحي يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمعناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدنيتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متممات مدنيتهم، ولمن

يتولونها شأن يذكر عندهم . وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برآسة الوزراء أو رآسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخيَّر وكانوا له أعواناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً اودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه

واما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط واعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فن التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الايسار فهي الازلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ماكان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة .
واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

واىما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبنى المطلب وبني أسد بن عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نعم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هـذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابناً لها:

أبنيّ لا تظلم بمكـ ـة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيّ ولا يغرّنك الغرور
أبنيّ من يظلم بمكـ ـة يلق أطراف الشرور
أبنيّ يضرب وجهه ويلح بخديه السعير
أبنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها . والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفـة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى اين منتهاها وماذا يزكيها وماذا يدسّيها ثم طرقوا هـذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الا كثرين ظنونا ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخيلهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً ان يشركوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحث على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الآ قليلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوّث عقولهم بنزغات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمةً وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال جذوره ولا ندري السر في هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأناً رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرّف وأحسنت المقام فى هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لأمر عظيم وشرف جسيم على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصراً . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية ، والأمم والشعوب تحيا بافراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيداً لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت مكاسبهم لانفسهم لا يشاركهم فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم يتحاكمون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائصهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثأر له العموم أو يثأر له من أصابهم خاصةً

وكان جائزاً لأحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة فى النشور والجزاء الأخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة فى التجارة والرحلة فيها الى الشأم وغيرها فى الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على البغاء ليأخذ ما يعطين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة بيد انه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهليهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهنّ ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربهم الأعلى، الذي خلق فسوّى،

الفصل الرابع

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦:٥٨ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيمٌ ٥٩ يتوارى من القوم من سوء مَا بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحمقى واولو الألباب، وفيها القساة وأهل المرحمة . فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد فى الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتي يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمنهن بنفقة تساويهن بأترابهن، من ذوي قرباهن اوجوارهن، فيرون مواراتهن فى التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا لخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولو قدّ من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة. ولو قضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما زيّن لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان ويثمر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات ان يكون قوم «خديجة » على هذا النمط من ضعف النفوس

وهمُ المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانّى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب، من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة او ان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل مالهنّ من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حطّ اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*) فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها وأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه ، فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودهاتهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكانة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمور العمومية. وناهك أن الحرب التي ظلت مستمرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بمالها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت اتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت « اخرج الى هؤلاء القوم وأصلح بينهم ثم ارجع اليّ » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

وحسبك من اشتهرن من العربيات في السياسية منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقى . وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لاخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليًّا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (*) ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقدِ الجيوش وسر أمام لوائه ... قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كانه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيّد ، ولا مورهم

(*) اخوة الدين

مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة. ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فاما عزلته فشكرناك، واما لا فعرفناك» فقال معاوية «اياي تهددين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك» فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه　　قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا　　فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام» قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة ام لقومي عامة» فقال « ما

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والاّ يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاصي ومروان وسعيد بن العاصي فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر » فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة ولما وفدت على معاوية قال « مرحباً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير ياأمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت ياأمير المؤمنين « مات الرأس وبتر الذنب ، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر » قال لها اتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت « لا والله لا احفظه » قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه » قالت « احسن الله شارتك وأدام سلامتك ، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه » قال « أو يسرك ذلك ؟ » قالت « نعم والله » فقال « والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبة ؟ قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش،
ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك
لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم
يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ،
وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق،
وواليت عليا على حبه المساكين، وإعظامه لاهل الدين، وعاديتك على سفكك
الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى » ثم قال لها: ياهذه هل رأيت عليا؟
قالت « أي والله » قال فكيف رأيته؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك
ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان
يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست » قال صدقت فهل لك
من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها؟ قالت
« أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار، وا كتسب بها المكارم، وأصلح
بها بين العشائر » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي
طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما
أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرةً واحدةً من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت
عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية، من أخوات سيدتنا القرشية. وهكذا
كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور
العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب، وما أتينا الا
باليسير توطئةً لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

الفصل الخامس

« مقام خديجة » عند قومها

ما أكرم هذا المقام! واي بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعي لتصور هذه المنزلة؟ سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجلَّيان، والجمال والكمال يتألَّقان،

ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السما بهاءً ونورا

من شرف حسب، الى كرم محتد، الى سؤدد قبيل، الى عز عشيرة، الى جمال ذات، الى كمال صفات، الى فضل حجى، الى طهارة نفس، ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها في المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء، ولا نبأها بغريب من الانباء، بل هي معهودة في كثير من النسوة، ومع ذلك لم يكن لاسمهنّ نصيب بغير الخمول، قد طويت أعلامهن، ولم ينشر ذكرهن، ولم يسمُ في أقوامهن مقامهنّ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها. ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم. وليس بكافٍ لتعالي امرىء ان يكون كاملاً بل بد مع ذلك من احاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهور ان الحجارة

الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل ايضا على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم ، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع ،

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لو فرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا . وليست «خديجة» وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان الكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطع من ذلك الا بالهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي معدود، وعقل مذكور ، ونفس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل وابا الفتوح وابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه إلا بمحاورة سيدة من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها ما لم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضار لان فيما يعهدونه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه ان كان مفيداً ، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكنّ القارىء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الا لفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الامعان فوق ما نتصوره وفي كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرةً أمام زاخر فوائده وباهر أسراره فلذلك أحببنا ان نمر بقارئنا مرةً في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الا كثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم ، نعم نحن لم نطرف بما فوق المعهود ، ولم نُهدِ ما وراء المشهود، ولا عذنا بمبتدعات التصور ،ولا لذنا بغرائب الحوادث،وشواذ المصادفة وخوارق العادة ، ولم نمتَّ الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال،ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبنا اليها بنظر الإمعان غير وسنانة عين بصيرتنا ألفينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الإدراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم يكن حسناً بنا ان ننسى أحاسن ما تلده لنا هذه الامّ من الصور التي لا نحصي اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا ، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا ،

وبتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا ـ نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد علينا اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا ان تحيط بكنه جواهره خبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل « خديجة » والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعا في «خديجة» فرأينا في سيرتها ذلك المثال السني، والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها، لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعلها، كما لا يصلح الماء، لان تطبع فيه ماتشاء، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من نوه به او التفت اليه فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاء عظيما فان التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبح في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها، فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها، واعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معيارا لها فكل ماقرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف، وكل ماقرب من المنكر كان مسترذلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان، وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

وأي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطلع على ما كان لقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك. فتراهم مثلا لما كانت السماحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهمتهم في الجود الكواكب وازينت الارض بمناقب هممهم، وايثار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا ايتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير — وهو ابن أخي خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال « ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، انا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خلفا منه » ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الذليلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ولمثل هذا يقول علي ابن أبي طالب «بقية السيف أنمى عدداً، وأطيب ولدا » وتقول الخنساء وهي احدى الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرنّ احد اذا قيل له ان الشجاعة ـ وهي السجية التي لا ترقى الامم اذا خلت منها ـ كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم مالم تكن فيه وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتى فضلوا، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان مايفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكَرَتْ تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل لا بد ان أسقى بكاس المنهل

فاقني حياءك لا ابالك واعلمي أني امرؤ سأموت ان لم أقتل

وقد يظن ظانٌّ ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا ان ندل القارئ على ما كان من باس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم جيشا كثيفاً ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل أخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار، وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحمى الذمار، واتقاء العار،

وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم　منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها　للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة　موفق حازم في أمره أُنُف
فيها فوارس محمود لقاؤهم　مثل الاسنة لا مِيلٌ ولا كُشُف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا　ليعلموا اننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم　ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو ان كل معدٍّ كان شاركنا　في يوم ذي قارما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم　ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت　حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
بطارق وبني ملك مرازبة　من الاعاجم في آذانها الشُنُف
من كل مرجانة في البحر أحرزها　تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم　والبيض برق بدا في عارضٍ يكف
مافي الخدود صدود عن سيوفهم　ولا عن الطعن في اللبّات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرج العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة　الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به　للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا باسلابهم والخيل عابسة　لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت ساقيةً يوماً ذوي كرم　فاسقي الفوارس من ذُهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم   واعلي مفارقهم مسكا وريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعاً على أمشاط أرجلكم   ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا

وقلدوا أمركم لله دركمو   رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده   ولا اذا عض مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره   يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمر على شزر مريرته   مستحكم الرأي لا فحما ولا ضرعا (*)

وليس يشغله مال يثمره   عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فعلى مثل ماذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لاقوام الامم بدونها وكانوا لا يمتدون بالجبان ولا يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا   وفينا زياد ابو صعصعة

فستة رهط به خمسة   وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم إلمام قليل بحركات الكواكب والانواء التى

(*) المريرة طاقة الحبل والحبل الشديد الفتل . والشزر الفتل عن اليسار والمعنى استحكم امره وقويت شكيمته . والفحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

تتبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان اوطب الحيوان.والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها البارى في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنهاولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل وإلحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً .وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلقون حولهم . قال رؤبة بن العجاج قال لي النسابة البكري «يارؤبة لعلك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : اني أرجو ان لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني ان أقول انها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي تخطر للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وابرازه بأبدع حلة ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال، ولا نستطيع ان نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ولكنا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بابدع البيان ، ومقدار ما وسعت منها تلك الافكار. ذكروا ان عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى اسمع ما تقولان. فقال عمرو لحممة أين تحب ان تكون أياديك ؟ قال « عند ذي الرثة العديم ، وعند ذي الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضيم » قال : من احق الناس بالمقت ؟ قال « الفقير المختال » والضعيف الصؤال ، والغني القؤال » قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال « الحريص الكاند ، والمستميد[1] الحاسد، والملحف الواجد » قال من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال من اذا أُعطي شكر ، واذا مُنع عذر ، واذا مُطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر » قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال «من اذا قرب منح ، واذا ظلم صفح ، وان ضويق سمح » قال من ألأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ،واذا ملك كنع[2] ، ظاهره جشع، وباطنه طبع»[3] قال فمن أجلّ الناس ؟ قال « من عفا اذا قدر،وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر» قال فمن أحزم الناس ؟ قال « من أخذ رقاب الامور بيديه ، وجعل

---

(١) المستميد هو المستعطي (٢) معنى كنع هنا انكمش (٣) الطبع بفتحتين هو الدنس

العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه » قال فمن أخرق الناس؟ قال من ركب الخطار، واعتسف العثار ، وأسرع في البدار قبل الاقتدار (١) » قال من أجود الناس ؟ قال « من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود » قال فمن أبلغ الناس ؟ قال « من حلى المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز » قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال» من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز مايخاف ، الى مالا يخاف » قال فمن أشقى الناس ؟ قال « من حسد على النعم ، وسخط على القسم، واستشعر الندم ، على ما انحتم » قال من أغنى الناس ؟ « قال من استشعر الياس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم » قال فمن أحكم الناس » قال من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر »قال من أجهل الناس ؟ « قال من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما »

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على انه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقه التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكد في تفهمه مدركته، أو يدني في حفظه ذاكرته،أو في توسيعه مخيلته

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئا عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم

(١) يريد بالبدار معاجلة الخصم

وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعفاء والعفائف، واجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق اذا كان يقال لها «الطاهرة»

فاذا عرف المطالع الكريم ان لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به ان لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش . فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم ،واستوفت وان بخس الوزن لهم ،ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم «خديجة» الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اولئك الذين وافاهم الوحي ينعتهم بما هم أهله قائلا «كُنتُمْ خيْرَ امةٍ أُخرِجَتْ لِلناسِ تَامُرُونَ بالمَعرُوفِ وَتَنهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتؤمنُونَ بِاللهِ»

الفصل السابع

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ماألفت العيون رؤيته، والآذان سماع أحاديثه، لاتزال أسراره موضوع التفكر، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب، كيف لا وهو السر الاعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع، والسبب الاكبر في ابعادمابينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك، فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. وايماقوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدًّا عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا الاحظ لهم من الجمال، ولا ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن.

كَبُرت سُبّةً أن يكون قوم «خديجة» على مايظن هؤلاء الذين لايتآلف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكَبُر منا تقصيراً ان لا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يميروا اسرار الخليقة نظرةَ تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس، ويجدهوفيهم أهله الكرام

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم، وتناسقت أوضاعهم، واعتدلت أشكالهم، بياضهم جميل، ليس فيه بهق بعض الاجيال، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حلكة بعض الاقوام، ولعلّ من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعةً ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة، واستواء الهامة، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه، وحلاوة المبسم، وملاحة العينين، ولطف الحاجبين، ورقة الشفتين، ولعلّ هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يبلغ به منتهى الكمال، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصةً

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً: البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة وقال ذو الرمة احد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هـذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيـه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبّر عديّ بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خالطَ صفرة في بياض   مثلما حاك حائـك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبّهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر . وتشبيهم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هـذه الحمرة لاتنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ماهو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس، ان يفهموا الجمال المعقول، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذالك ولم يعزّ عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان نزيد قدرهم فى اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش، والتنقل في المعتدل من الاقاليم، وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل.

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً تجده لا يقصّر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهنّ، وجودة امعانهن، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال:

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرىء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لافراط عزّه) وكانت ذات جمال فوجّه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلما رجعت قال لها الملك «ماوراءك ياعصام»

قالت: رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك، ان أرسلته خلته السلاسل، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين المهرة ، التي لم يرعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالارجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كابريق الفضة ، ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقد ان شئت منهما الانامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها — الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها — وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، — فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديها اذا حسرت صافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيضٌ والفرع مثل الليل مسودّ
وجبينها صلت وحاجبها شخت المخط أزج ممتد
وكأنها وسنى اذا نظرت أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الفصل الثامن

ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة «خديجة» مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظّ من الثراء ايضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة واملّ اباها نحلها رأس المال بادي بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجّاراً تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤدد، ومنافسة الاقرب والأبعد، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين. ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله: «بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه،[1] وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه، القت[2] والهبيد[3] والصليب[4] والعلهز[5] والذآنين[6] والعراجين[7] والضباب[8] واليرابيع[9] والقنافذ[10] وربما أكلنا والله القدّ[11] واشتوينا الجلد،

---

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ - ٩ - ١٠) الضباب واليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً ، ولا أعمر حالا ، أوما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مُذَيقةً (١)　　وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة　　ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم متمنٍّ عيشنا لا يناله　　ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، وإياه نسأل تمام النعمة »

هـذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليـه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف ، وقوة في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه مالم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع ، بل اللائق

(١) المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

هؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنّما أسعى لمجد مؤثّل ... وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام ، وكلّ منهم له في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمدقومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلّح مئة كميّ من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير [1] ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثرعن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير [2] وكثيرون غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل المتاع من هذه البرية وإليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين

« ١ » تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاماً وحضرها مع اعمامه يبري لهم النبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومثر كبير وهو من تيم بني جمح

« ٢ » أمية من تيم بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي « ص » اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر الى ذلك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه ، فلأبناء هذه البراري أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لانفسهم ولجيرانهم انما هو في أن يحفّوا للتجارة لانها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب خير قيام فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن .

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقتة في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشتروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع باسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّا وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشترى له

بثمنها من أدم الطائف [١] ما يحتاج اليه ولم يكن يرسلها فى هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأي بادره فقال : لله در قيس في أي عش أودع فراخه : يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة فى تلك البلدة «أم القرى»

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

«١» الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون، وزرّاع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجند له نسى ان لا يقبس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلا فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصاب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدّ مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في إدراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة من بعد ان أوشك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهناك اودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس ، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الانسان المتحضر من صنوف الاكسية المعتادة ، وضروب الاطعمه والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة ، والعقاقير المعروفة ، والحيوانات المتداولة ، والاسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التى تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليله ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لا ننا لم نعهد لهم الى ذلك العهد وجها من وجوه المرابح ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والغراس ، والاراضي للمعدن ، .

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهما شيء كثير. من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أميـة قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوٌ له في وطنه (مكة) أدّت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ماعليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أحد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلّت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والغَناء، والنعمة والهناء، من درّها الغذاء، ومن أوبارها الكساء، ومن جلودها الماعون والحذاء، ومن بعرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء، (١)
وبطونها أعظم بها واسطة للنماء، فبميشك أيها المطالع! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية بجد أحداً مثل هذه البركة، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعدّ مالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها، النامية بطبيعتها، المدركة بخلقتها،

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال «حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نفدا، وان تركتهما لم يزيدا، ان أفضل المال برّة سمراء، في تربة غبراء، اوعين خرّارة، في أرض خوّارة، » أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط. وهذا هو الاس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المعدن فالظاهر أنّ بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعاً فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

---
(١) النجاء الهرب

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمىً وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التى هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم اشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القَبَلِيَّة (منسوبة الى قبل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه اياها وأقطعه جبل قُدْس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فان ملك الارض والمعادن لا يزال ايضا ينبوعاً ثرورا للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني ان فائدته المادية كفائدته ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش « من بني عبد الدار رهط خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيما لثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التى كان لها ما للنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها، وعلو همتها، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها لأن الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النبّاش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وانما يفعل اغلب ذلك الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من ابي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور احياناً اسماء الاناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هـذا ونحن لا نكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لا ندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولاسيما بعد اذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ص)

وان لنا – والحق يقال – حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونها ويجذبونها الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء امّ الحسنين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء

الفصل العاشر

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

واذا العناية صاحبت مرءًا فلا　　تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاكَ حديثه　　مهما حوى معها نما مهما سَما

لا تسأل كيف أبدع الانسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات اتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، الماذّات بنسائمهن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلاذها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان شئنا نرفع من شأنها بما نركّب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى غيرها . فاطّلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارق الأسرار ومغاربها، وارتفعنا الى ينابيع الاكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياةً لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت امالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض، وتدابرنا في مناهج طلابها، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في أنصبائنا، والفرق في مرامينا، والبعد في مدارجنا، والغبن في معارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابحة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، بادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القفار ونقعها، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاوائل

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والوجودات، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات، من الاشكال والتنوعات، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ان في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوةً من الارض اذا أنتم تخرجون

اذا وقفت نفسك عند هذا المطمان من المعرفة فلعلها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استمدادنا ان نحيط باسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا، وأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السر الاعظم، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على مايختص بها ممن يشاء له الامر كله فيما يبدىء ويصور، وله الحكمة فيما ينوّع ويميز، منه كل شيء واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية، والعناية السرمدية، فدع نفسك واقفه ماشاءت في عتمة النفي، أو دائرة في سجن الشك، أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها. وانما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون

* * *

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب [1] من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

«١» اسم عبدالمطلب شيبة ولتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما =

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكره

أكنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقي ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية

أجاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في «غزة» فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبت والدته أن تعطيه اياه حتى أقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع ، وتمجيداً لا يزول ؟

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك لظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزلي ، فليدم ذكرك جميلا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني الامم ، تواريخها ولا سني انقسمهم وانما كانوا يحفظون الأعمار ويوقتون آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين الى عهدنا

ولد عام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وابائه المسير تلقاء مكة لذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونقلة الاخبار

وقد أعطي لمرضعة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع النمارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

* * *

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل ، وسوء منقلب الكسل ، وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الانعام تعهداً ان لا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم ، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر ، ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم ، ولا أونقت رياضهم ، ولولم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظمأ - ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهما لم يكونا يملكان الا نعيمات قد جارت عليها السنة ، وقتلها الجهد والجدب ، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فملأتهما فرحا ، وأشبعتهما ابتهاجا ، ولم يكونا يفترانِ عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء ، ويجددان به شكراً على هذه النعماء ، وهذا ما كانا يتحدثان به :

— حقا يا حليمة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أي والله يا حارث وانظر ما أجمله ، انظر الى هذه الاشفار الهدب ، انظر الى هذه العيون الدعج ، انظر الى هذا الجبين الازهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي بذلك، وكيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت
خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء [1] معنا شارف [2]
لنا والله ماتبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من
بكائه من الجوع ماقي ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا مايغذيه ، ولكنا كنا
نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [3] بالركب
ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك انا انما
كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع
أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت
رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اني لأكره أن
أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ولآخذنه»
قال لا عليك ان تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت
اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره . قالت فلما أخذته
رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من
لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام
معه قبل ذلك. وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل [4] فحلب منها ما
شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت. يقول صاحبي
حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت
والله اني لارجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

---

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة أو بياض فيه كدرة. حمار أقمر ، أتان قمرا
«٢» الشارف الناقة المسنة «٣» أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من
عجفها أي هزالها وضعفها «٤» حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى ان صواحبي ليقلن لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا [1] أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن بلى والله انها لهي . فيقلن «والله ان لها لشأناً»

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان »

فيالك من سعيدة يا حليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت يديك ويا لكن أيتها المراضع الغبيات المعرضات عن اليتيم التماساً لارضاع الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

* * *

بعد ان ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقاً هذه الدار وأودعه لدى الجناب الالهي الذي من لدنه واردات البر والبركات اليه ، ونوافح الرأفة والحنان عليه ،

(١) اربعي أي ارفقي واقتصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فادخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيهاً شهماصادق المروءة،ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبدالمطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبدالله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والإحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهنالك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشىء الارتقاء العقلي ، ومناجم الإشراق الفكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قوانين للمعارف يرتبونها ، ولا شيء الاغرائز طبية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وحصافة أوتوها

في نقش أصحّ التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر، وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرّية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل، فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، بطابع من المربين، ونقش من المثقفين، وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، وربيبه النجيب،

نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خلقاً وخلقاً، أذكاهم عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أنداهم في العرف يداً، واثبتهم في الأزم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعدلهم للبعيد، أقربهم الى المعروف سمعا، وأبعدهم في الامور نظراً، أسدهم رأيا، وأشدهم اقداما، ألينهم للصاحب جانبا، وأكرمهم للخير صاحبا، وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده جمالا وجلالا وكمالا والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشّأه ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت. كانوا على وجه الارض جمالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعامتهم طرا، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا «فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه «أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها ، ومزارعها ومصانعها ، ومتاجرها وحكومتها ، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس ماتعمله تلك الايدي الثقفة ، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هذا الحطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى مايقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الأديار في «بُصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرنه على أساليب التجارة ، وأطلعه على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده مالا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ماليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ماليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ماليس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف ،وتتقابل الابطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبناً ، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبّل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف النضال ، وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الى معارك أبطال المبايعات، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات ، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاحه الله للاخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة » فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه

الفصل الحادى عشر

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لاتفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط الفيوضات العلى، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والأبد، والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتألفة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها، واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف إليها بجاذبية الانس والمادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف، فيحق لها في الحالتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان والوجودات كلها، لكن إختلفت

المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانيـة أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه،ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فتولهت فتدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هـذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما ، هما بالاختصار ركنا السعادة والشـقاء، فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليـه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخـير عظيما

*
* *

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فماذا أحبت سيدتنا هذه؟ كان قلبها توّاقاً الى معالي الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخـلاق ، وقد أمد الله فطرتها امـداداً عظيما فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها،

وانفتقت أنوارها، فكان لها تشوّف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانيـة ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هـذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور ، فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه مايعشق من المزايا الملية، انتثرت حبّة من تلك المحبة الشريفة التى كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها، بل كيف لا يميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً ، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها ، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها، والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأيّ الفضل تنشد بعد هذا محُبة الفضل، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خَلق وكمال خُلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لا تقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حليم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل   اذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلها عنه ليس بغافل
لقد علموا ان ابننا لامكذب لدينا ولا يعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت انه لانظير له، وان سعادتها لاتتم الا به، وما أحقها ان تغتنم الفرصة وتسبق الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن : ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته: يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا المنبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذ الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم الا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدي الانبياء الذين تنصرف

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة «خديجة»

ولما رجع عبدها «ميسرة» من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي «محمد» أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رنّ في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد. وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات:

«تفاؤل هذا وقته»

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب «خديجة»

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها «ميسرة» ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مرَّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام -التي كانت تراها في اليقظة- ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجى وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق ، ويقوى ايمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة ، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي ، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها ، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها ،

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر ، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

افٍ ثم افٍ للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم ، أو تذرها في سجن أقفر ممنوعا عنها كل ما يربها ، ويا عجبا

لبني آدم الذين يضعون المادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم ما يذكرهم بان العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب ان تكون تابعة لا متبوعة ، ومنقادة لا قائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت ، ومذمومة على مبلغ ما اضرت ، واستقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت «خديجة» بالعادة كثيراً ، وتأفقت من تقلبها طويلاً ، وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة آلة المعرفة ، ومزيد حرارة الهمة ،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الا كثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت ، ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث ، أوهبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطوداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأسا بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

الخيبة فيغلب احجامها اقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها! هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال . بيد ان ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمّت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها، ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه عقت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد ان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد، ولم تقدّ من صخر، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة اليأس، ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة، بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا . ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بياتاً أو يصبحه وسناء

صباحاً . وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة باجنحتها ستقف مما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها . ما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أنتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم التي لا تباري حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف لذاك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان . كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة ان تتناول هدية سعادتها ، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التي

ترعاها، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولاً تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هذا المكمَّل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها وائتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكنّ ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل　　ماشئت في تيسير مايرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ماسيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله: خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

اذهبي يانفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لايقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفوء الذي لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفوء غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان ففي هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل، فبخطبةٍ من الرجل وتقديمه الصداق واجابةٍ من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت « خديجة » الطاهرة زوجة « محمد » الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

الفصل الخامس عشر

(بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت الى يد هذا الامين بكل ماتملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والعائل فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشحيحة الكاظة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكفؤ الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأيا يغاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستمدة ان تزداد كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامى ،وشبعت فيه اليتامى ،وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احيانا تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لاتسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والاوهام التي تنهى عن الانفاق خشية الاملاق أما سيدتنا

فكانت ترى إنفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العائلين من جملة المزايا العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعِدَّ له، وعابثا بمثل مايعبث به أترابه، ولم يكن هذا الصبي يتيما بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة، أبناء المجد الابدي، ابناء المجد السرمدي، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالايتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبو طالب » ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفا عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علياً الذي صار الامام أبا الائمة، وبدر سماء السيادة في الأمة

كانت تربية عليّ في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من حسن الحظ فان الغيب كان يعده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم، ومن أين كانت تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختنا كريما وبعلا صالحا لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم

أنه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وانى يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جدا لعترة تتصل بهذا البيت سيمدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار، عظيمة الشأن

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم! نعم! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعما يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار، بل تراه من العار والشنار، لاسيما اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أوسمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح، كما كان مسعدا للاشباح، وليعرف القارىء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهدا لأكرم الآداب وأعلاها فان عليًّا المرتضى هو من عرفه العالم كله، هو ذلك الامام الاكبر الخليق ان يكون مثال القدس وزكاء النفس، هو مجمع المعالي وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته! قد رأينا الامين يجد فيه مجالا للتخفيف عن المثقلين، والتنفيس عن المكروبين، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة، وأيدي مبسوطة، ولديه خيم الجود والسخاء، كما خيم العدل

والوفاء، ومنه اشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى ؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه ، صعبة مسالكه ،وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته، ولابسو ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه، وتشتاق أن تقف على روحه وحدّه ورسمه، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «حِراء» فما هو هذا التعبد وكيف هو، وما الذي ساق نفسه اليه ، وأيُّ دين فرضه عليه ؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسممه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ،واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالقارىء عن سياق السيرة، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعل السيدة «خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته عبارة

عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هذه السيدة يأتي في غار حِراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باريء السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب اذ ذاك اليها، ولم يكن مقيما أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التأريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في « حِراء » فمكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم تتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن تعرّفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهيه كل امرىء لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعُدَ نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة وأحد الاصول والاسباب في ترقي هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدئ مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، اذ لا براهين عقليـة قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن اذا عزّت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يُحرمه الا قليل تُزمن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لجّ العقل في محارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات

انها لمن تأمّل مراتب وصفوف ، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ما لاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها الا بعدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيمايدل عليه قداشتد تباينهم وحار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه و بين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحرت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما ألذها على القلب من حيرة عقباها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأني وليد هذه الساعة ، لانني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والألوان ، ولم أكن أشعر بملائماتي ومؤلماتي ، فكأني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأنى كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواخر هذه الغبراء . . . ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفيَّ أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يافاطر ياباريء يامصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المرائي ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه هذا فأين ذهب ابصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتيابي الآن وأنا متذكر أن هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم الظهور، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا ..؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب ! لعلها لا تسمعني ، أو لعلي لا أسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل، وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسي وعن احتجابه ! ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا؟ أم أمره كأمر هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزول أبدا؟.

كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض. كلا سأسائل ثم كلا سأسائل !

رفعت رأسي الى السماء فألفيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى الارض فألفيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلا وحدًا ، تارة يفيض نورا ، وأخرى يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسماء وضعوها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جد ، وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

بيني وبين كل ما هو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لأعرفها أم لتعرفني ؟ وهل كانت لي أم كنت لها ام كنا جميعاً لهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكني أعرف يا نورانه لولاك لما عرفت شيئاً

سلام عليك ايها النور ! يا حاملا نعمة المعرفة الينا ، وشكراً لمن تسبح ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست ادري كيف عرفت ، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي ، فهذا اليمّ الذي يمعج الآن أمام غرفتي اصبح لا شيء عندي على اتساعه لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لانني احطت بها ، وهذه الارض التى اراها كسرير لي قد تلاشت في نظري اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لا ساحل له ، ادركت في هذه الساعة أن هذه الأشياء كلها مهما عظم حجمها فهي كالصفر بالنسبة الى ما لا يتناهى ، فعلمت ان ليس فيما أحاط به حسي ما يدفع عن فكري عطشته

راقني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

تركت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها ، وانثنيت الى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها ، لكنني استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق يخالط منها

الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال أنسي بهذه الخضر المترنحات ، والورق المتغنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتني الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها المدى الى ماأنشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسّي وفكري في هذه العوالم المحدودة .. اياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قارٌّ في ذرات قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه ، حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصاراه

أني عرفت شيئا صغيراً جداً يسم أشياء لا تحصى مع أني انما أبغي أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ؟ ماهو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركا حسّاسا يحيط بالسموات والارض وبتغيره يغدو هذا الجسم ترابا صامتا صابراً تحت الاقدام ، ماهي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع ان يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا؟ وان كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة لتزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة الى عمر غيرها على ما يتخال وجودها من الاحتجابات ؟؟

محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، اذ قد ملأ نا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة بالظاهر انما هو آثارها: فهذا النور الذي يملأ الفضاء لا نعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصارانا أنا عرفنا سبحها في هذا الفضاء، لا يسندها عمد ، ولا يعتريها سكون، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لا تخرج عن مستقراتها،ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئا من ذلك بالجاذبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى مانعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تحلل هي الامهات ثم هي تنتهي الى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئا !

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا، ولكن آلة هذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترينا الاشياء كما هي،ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم ـ ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحدمنا الا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفي ءساعات،وماهي الا بحجم كرة مما يلعب بهااللاعبون !

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطا وهو متركب ، وساكنا وهو متحرك ، وصغيرا وهو كبير ، حتى نصل الى ماهو صغير جدا فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية اعظم مساعدة . . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعا من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهارير . ولعلنا سنهتدي الى ماريناأصغر من تلك الصغائر .ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد مايمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهمابلغنا بها

فما أكرمك ياعيني عليَّ ! أنتِ أنتِ كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريها لانني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لاترين كل شيء ولاترين شيئاممازينه على وضعه وحقيقته فاضطررت ان أقيس وجودي على وجود غيري !.. لاجرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه كما ان وراءالنور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراءالنور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده . . هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها منه صدرت ، وله العلم الازلي الابدي لان العلوم التي نعهدها من فضله أتت ، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة البارىء المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حيّ سميع بصير مريد وجعل حجابه هذا الهيكل البشري

أصبحت لا أرتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه ، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يعادل البطون ربما تخفى ، فاذ نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى فسبحان الله من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روحي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لانني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما يفعله بعضهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمح عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به..

فما نفسنا او روحنا الاجاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهيا كل وناظمتها. لا بدع في ذلك فالكوائن كلهامن اصل لا يرى ولم تنفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد مالا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير ممالا يرى . الصناعة بهذا ضمينة ، والتجربة فيه هادية امينة، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لنتعلم بها ان لها شؤونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس، سبحان الله كم لهامن انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية

نحن شاهدنا من هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليهم ثقات كثيرون بمجموعهم يدفع عن نفوسهم الريب وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية! غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون أن هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب معه البقاء أن اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تعليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم فياعجبا ماهو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص؟!

حالة المنوَّم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة ، وقدّ القيود الحسية ، وعمله الاعمال العظيمة من غير حركة يديها او واسطة يأتيها !

• • •

هذا حديث نفسي وخلاصة ماظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان

وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق ذوالشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها وعلى نسبة شوقها تكون رتبتها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور

***

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ، وكان شوقها ازكي شوق واقدسه ، كانت عظمة الشوق الى رؤية فاطرها ولكن هل الفاطر عز وجل يُرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ، ولعلها قالت لو كان يُرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ! ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ، ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها الصوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من ان تجد فيما حولها مايروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكل سمع لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقا ولذلك رأينا «محمدا» (صلى الله عليه وسلم) قد حببت اليه الخلوة والانفراد ولاسيما اذ شارف الاربعين من سنيه وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطبيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ولكن يصح لنا ان نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضراتك؟ كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك ؟ اليك ايها المولى من مزيد حبي قيامي وقعودي، وركوعي وسجودي ، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي ، وفرط ولوعي ، رحماك رحماك ياربي! كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله ، وانت انت مطلوبي وانت انت ذو الكرم والجود !

***

على هذا المثال كانت حاله ،وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله ،وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون عن الناس وتدلهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لاتتوقف الحياة عليها، ولايجدون الطمأنينة لديها ،هذه المحن والتدلهات أقضي بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لاتدركه الابصار فسمو وراءه مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لامضرة على الغير فيها لاينكره عقل، ولأرباب الاعمال الروحية لذات لايستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

فعسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف هممهم أمام حَزْن في طريقها

كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى ، والحقيقة الكبرى ، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له.. كانت قد عرفت أن هذا الغار في «حراء» الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية ،والشوق الى الحضرات الربانية .فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسأل الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤلها وكتب «حراء» في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتحياتهم ومحامدهم . وكم قد ترجمت قرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور، قال قائل منهم :

سلامٌ عليك حِراء الشهير أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلامُ فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت عليم

* *

لأنت يتيمة عقد الوطن فقيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاه كبير

الفصل السابع عشر

(بين روح وروح)
أو
(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بعل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حِراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القارىء ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الي القول به ولم يشذ عنه الا قليل وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ،

ومن يؤمنون بها احيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أنّ حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكني اظن أنّ محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديه . وان كان ينكر الملاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيدا . وان كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان «محمد» صادقا شديد الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » ، قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى الذي كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكايته وبثوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من «حراء» منتقع اللون ، مرتجف الصدر ، يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المخبت الصابر ، فما وقع نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أن أمراً عظيما قد ألمّ به .

تخفق لأول وهلة قلبها ، وساءلت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبي؟ ماخطب ذلك القلب الذي لاتفزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال؟ مابال ذلك الصدر المبسوط تثنيه الرجفات ، وما بال ذلك الطرف القرير تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ! رباه ! ماذا اصاب حبيبي ؟ قل لي أيها الحبيب ما ذا أصابك ؟ حنانيك قل لي ! قل لي !

— دثروني . دثروني

— لاصبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه عليّ

— بيناأنا في «حراء» اذجاءني روح فقال لي اقرأ قلت له «ماأنا بقارىء» فأخذني وغطني غطة (*) وقال لي « اقرأ» قلت « ما أنا بقارىء » ثم غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنابقارىء » . قال لي : « اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم * »

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت ابلغك رسالة ربك

* * *

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب « حراء» بابان: باب حيرة جديدة وباب هدى، فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف ، فاذا صادف أحد

*) ضمني بشدة وضغط

الافراد شيئا من هذا القبيل لا يقوى طبعه البشري لأول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثيراً فكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر الى حد أنّ بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل الينا أن صاحب «حِراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ»، يخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ماهذا الذي اسمع ؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بي ؟ انني أعلم أني في يقظة لا في منام، وانني اسمع كلاما لا ريب فيه ، وانني أحسّ بضاغط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل ! . رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني ، وخذ بيدي ، وثبت فؤادي ، وقوّني على مواجهته اذا عاودني .

ثم انه ليخيل الينا أن المفاجأ بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويناجي ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما لقيها قال «دثروني دثروني» . واختصر لها الحديث اختصاراً

دثرته «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد ذلك . وقال له «يا أيها المدثّر * قم فأنذر * وربّك فكبّر * وثيابك فطهّر * والرُّجزَ فاهجر * ولا تمنن تستكثرُ * ولربك فاصبر * »

***

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أشرنا اليه هنا ولكن مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه فكان هذا الاسم الجليل حريًا ان يكون دواء شافيا من تلك الحيرة وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك، جئت أبلغك رسالته، جئت ألقي عليك وحيا من عنده، وفي هذا الوحي الذي جاءه به مفتاح لتلك المغالق التي اشرنا اليها آنفا التي كانت تقف أمامه دائما.. في هذا الوحي مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان، في هذا الوحي اهابة بفكره لتناول معارف عليا، وتعاليم عظمى، في حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان الهدى يردفها لأن العناية الالهية ظهرت أتم ظهور، والعطاء الرباني سُلِّم جليا لتلك اليد التي كانت مرفوعة في «حراء» تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هذه الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التأريخ وقوع مثلها الا لقليلين: منهم النبي ابراهيم، والنبي موسى، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» «اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق» فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة البارىء المصور، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها

يقول له الروح «جبريل» «اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم» وهذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية

الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصبة نعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجَه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أميا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحي اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم

لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكرم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ماعرفوا من الوسائط من شاء ما شاء إذا شاء . وأن يجعل غير القارىء قارئا ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلاها هذا الاسلوب

⁂

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هـذا السر الرباني تماما ؟ نعم كان قلبها القوي خليقا أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من أبوابه

الفصل الثامن عشر

(عظم المنة باتساع المنة)

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري ، يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المنن ، ويجب بحسب حدودها قلب السنن

إي لعمر الحق لا غرابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نعم ألمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح لخديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حافٌ به ، والايناس صافٌ من حوله ، وناهيك أن في منزله

الذي اليه يثوب روحا شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأبيده وشرح صدره بادىء بدء هو روح السيدة « خديجة »

لم تكن هذه السيدة أقوى مُنَّةً من بعلها الكريم ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهةً ، فأخذته بين حيرة وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالامر سماعاً ، ووجدت للتفكر فيه مجالاً ، ولإيناس الرفيق مقالا

ولو بُدهت امرأة بما بُدهت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم وكان ينقصها ماحلاها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة وما أعطاها من قوة التمييز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب .ولكن العناية الازلية التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد أتمت العمل من أوله الى آخره ونسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لانها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به

تفكرت «خديجة» في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه : فالأمل يقول لها ان الامين لصادق وان روحه لزكية قوية لاسلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما بلّغه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأي شيء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لاتضاهيه المشارق ،

يفيض النور على القبائل والشعوب ، انت اللهم على هذا قادر اذا أردت ولا مانع لما أعطيت ! والوجل يقول لها ماهذه الحال التي أخذت حبيب قلبي فراعته ، اني لا أخشى ان يكون أمراً جسمانيا بحتا كما قد يعرض للأفراد ، اني لا أخاف أن يصبح هدفا لرمي الاضداد . ولكن سرعان ماغلب الأمل على الوجل ، والمُنّة على الضعف ، ووشكان ماتبدّت لها وجوه الادلة على أن ما أتى بعلها الكريم هو بريد خير عظيم ، ومقدمة فلاح عميم ، وكانت أدلتها على ذلك عقلية ونقلية تقدمت العقليـة منهـا على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله مايخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الامانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ، هو نتيجة تفكر جميل قد أعطى الثمرة سريعا ، هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى ساذجا نظيفا لاغبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظما ، ومن أجملها وقعا ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا

يستغني كثير منها عن تشريح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . فحينئذ يلوح لها انطواء الافادات الغزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لمظهر تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما اظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها ان الله عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل اعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافىء الله فاعل الخير بغير الخير ؟ ان هذا لا يكون على حسب تفكرها

(٤)

ونتيجة قياسها أو أقيستها ان هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

(شرح حكمة السيدة خديجة)

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد لا تبلغ سفن العبارات شيئا من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي لتستمين النفس على بث حبها لله عز وجل وتمجيدها اياه وليزداد شوق النفوس الى الكمال، وتعبدها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات، وان حقيقته لهي فوق المجاز والاستمارات

لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري أنى يبلغ الواصفون صفة من كنهه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نفد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستمارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علوا كبيرا

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكلتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح ما درج عليه الناس من الاستمارة فأصبح هذا الامر عاما لا فرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضا لان التفاهم في هذه الابواب لا يستغني عنه ولا يمكن الا بالعبارة

• • •

الى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثال ، وهو علمه ماقد عرفه الى الآن ،وخلاصة ماعرفناه من ظواهر التكوين أن البارىء المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميزا عليما أظهر الاشياء أمامه مبنية على التضاد ، وجعل تميز الاشياء بأضدادها ، وأودع فيه ضدين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان وضده،وجعل مع الاستحسان الشوق والحب، ومع ضده النفرة والبغض.

واقتضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تمييز الانسان أن تخالف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم الضدان المسمى أحدهما خيرا والآخر شرا . واحتاجوا الى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم الى معرفة هذه الجواذب والدوافع .ومن نمي منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكيما

وهل جائز أن يكون بعض افراد الانسان حكيما والبارىء غير حكيم ؟ كلا، ثم كلا. بل ليست حكمة الانسان الا من الله ،والله هو العليم الحكيم.

نعم ، بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس لعلم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال لان الانسان انما يصنع مايصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذي اراد ظهور الاشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا الحاجة اوجدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمي ما يصنعه الانسان لا لفائدة عبثا ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثا مع اننا لا نرى فائدة في عمله لا له لاستغنائه وتقدسه، ولا للمصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف خدور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم اذا رجعنا النظر الى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكر والتذكر ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى اذا تأمل نظاماً بديعا في هذه الظاهرات ويرى له نصيبا في كل شيء منها

فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أما محبو الحكمة فيعمقون نظرهم ويتلمسون الاسرار في تشكلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوضاع. ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت انظارهم الى استجلاء فوائدها ثمة أيضا لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا آخر فكأن الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل وتقدست اسماؤه

***

حكمة الانسان في الحقيقة هـدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر ، وتعليم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل مرء ، ويؤتاه كل احد في كتاب يكتب ، او خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستمداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لوائها

* * *

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العليا الربانية هدية الحكمة ، وقد رأى القارىء آنفا شيئا من حكمتها وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال، ونزيد المقام حظا من ذلك الجمال:

(١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع . وحق ما رأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يُعرف فاقتضت ارادته ظهور هذا النوع مستمدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتا عظيما قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي ، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لا يماري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجبا

ومن المشاهد أن البارىء عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقي هذا النوع ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها

من أضدادها . اننا قد شاهدنا ماجرى ويجري من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم، فوجدنا الغلبة للثانية على الاولى، وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان لا يفقه غير حاجته الى عشب يصد به ألم جوعته، وماء يرد به ألم عطشته ، أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، ويحسب من حركاتها ما هو أقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته، ودع عنك توصله الى استخدام الروح الساري في هذه الظاهرات الدنيا نعني به الكهرباء ودع عنك استفادته من الارواح العليا . واتيانه بواسطتها بالانباء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة «خديجة» أن الباريء عز وجل مطلع على أعمالنا ومجازٍ عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخري . . . ومن تذكر ماحررناه في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معانٍ من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالوجودات كلها وقد جعل لها سننا من جملتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونه بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده، وما بعد عنها مكروه لديه . هيهات ! هيهات أن نعرف مامعنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لا ضد له ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ماينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خلق الضارّ والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أمعن النظر بكل ماسلف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لايكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، غير متهيج لنقص حظ ، ولا متعال بزيادة نصيب ،فلا يكون الا محبوبا تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لايكافئ فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة ، وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار مايلقى المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء، وأما في هذه الحياة فنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول ان فاعل الخير يبتلي في هذه الحياة بالشرور

ونحن لا ينبغي ان ننسى أن مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لان المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حبا فيه. واليه أذهب ، وبه أثق ، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملا في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تعب الرفيق القارئ ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو الا روح خير وسلام ، وفلاح ونعمة واكرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

الفصل الحادي والعشرون

(الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، اذ رأيناه عريقا في مرافقة الاجيال، والتنقل في الانسال، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يزحزحهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، واضرَّ بهم كثيرا ، فاما نفعه اياهم فلأن الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة ، والاغزر تجربة، يجعلون المقتدين بهم يبتدئون حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم ما لا يستطيعون أن يمهدوا لانفسهم ، ولو بقي الطفل والغبي والضعيف والفرخالين من طبيعة الاقتداء لراحت اكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى ، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولا نمى العمران، ولا سما النظام . وأما اضراره بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور ، وجعلهم يحرمون مما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ماعرفوا من قبل ، وان اصبح ماعرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه واضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه، لا قرابة

بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الآخرين من جملة الادلة هو الذي حملنا أن نقدم هذه الكلمات في وصف عراقته وبيان أن بعضه افم كما وقع للسيدة « خديجة »

* * *

كان للسيدة « خديجة » ابن عم قد شبع من الاعوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) دينا وهو « ورقة بن نوفل » .

هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة تتخذ قوله حجة وهديه معتصما لان هناك وجوها كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصح لها . فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ابيها ، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدسا الذي كان اكبر همه حث الناس على التحابب ونفع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن وايذاء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسمو التعاليم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جدا

ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى

كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف مصدقا بأن ليس هذا الهيكل البشري الا مظهرا لشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، وانه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يحب جذبه الى سبل التكمل ، وصنف منها يحب بقاءه في

حضيض البهيمية ، يقال في العربية للاول ملائكة وللثاني شياطين

كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بأن بعض الارواح الذين هم الملائكة يختصهم الفاطر المصور بمزيد خصائص ويجعلهم نواميس أي وسطاء الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جدا

كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأن لهؤلاء وهؤلاء علامات. فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه بقدسية الروح الذي أتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي يقول في رسالته الاولى «أيها الاحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم. بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمراً واقعا فان ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمه بعض مسائل قال له هذا هو ناموس موسى أي الروح الذي جاءه . والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي وظهرت له العلائم الدالة على أن هذا الروح من الله على حسب ماتعلم من الكتب

نحن لاندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة الامتحان التي أشار بها ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد بالنسبة الى زماننا هذا كان لايجهل هذا التفسير . وكذلك لا ندعي العلم بتفسير قول موسى لبني اسرائيل «ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من

اخوتكم» ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من «اشعياء» ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعياء أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلع ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية.
وهذا نص ما في أشعيا :

«١ هوذا عبدي الذي أعضده ، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفىء ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض ونتائجها ، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك ، فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للامم ٧ لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي ، لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الاوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها، قبل ان تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب اغنية جديدة ، تسبيحة من اقصى الارض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا للرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر »

***

قد قلت وأعيد قولي اني لا أدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آنفا من قول موسى واشعيا مايشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا مافهمت لايجدني آسفا على عدم إصابة ظني بخصوص ماحمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ماظننته . ولست في هذا المقام بذي حجاج ومناظرة ان أنا ههنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ماوصلت اليه من النقول

وههنا مسألة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القارئ وهي ان الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها

هذا المعنى كان بنو اسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون . وتبتدىء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبئ فأنبأ بانه سيكون طوفان ويموت كل من على وجه الارض وهدي الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تفرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم* وكان ينزل عليه روحا من عنده ،وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثرة فولدت له اسماعيل ثم انبئ أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح (كذا في التكوين)

وطول هذا المقم فولدت له اسحاق وانبئ ان نسل اسحاق سيكون كثيرا أيضا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لاتخافي لان الله قدسمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية برية فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تلألأ فيها

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك بسرد أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة . هذا أيضا كان ينبأ وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم »

واسس موسى لبني اسرائيل ملكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعاظم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطوارئ حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعدها من نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيرا على مريم أم عيسى وبشرها بانه يكون لها ولد من غير أن يمسها بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقه الا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بمثلها ، أو يصدقون باشياء هم مكذبون بمثلها . هذا أمر وقع كثيرا ويقع دائما أمام أعيننا واسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص، وماهو الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وماهو سبيل العقل في التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنع الله، ونفذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى لا ينبغي له أن ينكر قدرة الله في اخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعل ، ولا يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق وبنزول روح الله عليهما لا ينبغي له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية والعيسوية وأما الذين لا يصدقون بهذي وتلك ولا يحكمون الا الحس والعقل فهؤلاء أمضي بهم الى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أننا لا نعدم في خزائنها كثيرا مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها

فان قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس هذا سبب اخبار من روح كما تقولون قلت لهم اذا توافقنا في ثبوت الاصل فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسمائها

وان قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهم قلت لهم ان هذا الفرق ظاهر لان الاختصاص كله من الله فهو يعطي انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لاتحيط به العبارة ويعطي انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم فالاول يقول أنا نبي أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لا يظهر قوله حقا . فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يعدوها الاخلاص الى الله والادب مع مجالي أمره ، ومظاهر سره !؟

لقد كان ورقة على ماظهر لنا شديد الاخلاص متوغلا في علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها ، وكان على نور فراسة من ربه وسرعة استطلاع فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس بصاحبه وتذكر مانقل عن الانبياء واصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني اسحاق « سيقيم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر ايذاء الناس للانبياء مع قول اشعيا «لترفع البرية صوتها ، الديار التي سكنها قيدار » وقيدار هو ابن اسمعيل ، وقوله « لتترنم سكان سالع » وسالع او سلع جبل على مقربة من «يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشا ستضطر هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جذعا — اي شابا — اذ يخرجك قومك »

وبعد برهة قليلة توفي ورقة . أما «خديجة» فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت علومه الى ماقد عرفته هي بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بعلها ورسالته الى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون

(الايمان والآيات وخوارق العادات)

قال بعض الناس في تلك الأيام لاعجب اذا آمنت «خديجة» ببعلها فان رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم اذ طفق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا أسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبإ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها ، انقسمت الافكار ، تباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحبا له ، ولا عرفناه صاحبا للخداع ، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقعه ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئا . أتانا يخبرنا بامر يشبه ما نسمعه عن أمر موسى نبي بني اسرائيل ولم يكن أمر موسى الا نافعا لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يُهدي الينا نفعا بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »

قالوا :

« يقول صاحبنا ان روحا أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من

هذا ببعيد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية الابدية وقفة العارف أن هذا بحر لا حد له . ويقول انه أمر بتبليغ الناس هذا الوحي وما سيتلوه»

قالوا :

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حقا كان من العار العظيم والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذي اهدى الينا العقل من قبل وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها وربما كانت من نوع أعلى وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح ما يهب الفاطر جل وعلا من صنوف المعارف . وان كان ما ادعاه غير حق فان حبله سيكون قصيراً لان لدينا عقولا ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره »

وقال نفر :

« لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة ، هل فقد عقله ؟ كلا فانا لا نزال نرى صحته واعتداله على أتمهما . هل تغيرت أخلاقه؟ كلا فان من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يبيض الصادق مائنا . كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصراً من قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة ـ الى الاتيان بهذا الامر الغريب الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعي من لدنه ، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التي تنزلت الينا فضلا من ربنا ورحمة ، انا به مؤمنون ! »

كان في مقدمة هذا النفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه وليت شعري لماذا تجول الظنون وتحوم في تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذي رسمنا صورته من تفكراتهم هو المطابق لحكمة المعتدلين

القائل ان «خديجة» انما آمنت ببعلها لانه بعلها هو في سعة من ظنه هذا اذا شاء . ولكن بما مهدناه من المثل بايمان أبي بكر نتمنى أن يكون انتفع بمعرفة أن طريقة ايمان «خديجة» كانت أعلى مما يظن

ان الذي آمن به أبو بكر ثم مئات ثم ألوف غيره لايجوز للعاقل المنصف ان يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب أخلاقهم وطباعهم وتصوراتهم فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة «خديجة» لم تؤمن بهذا الروح الجديد الا لان صاحبه هو بعلها هم إما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيذ العاقل بالله من تفاهته وهو القسم الرديء منها، وإما هم مجبولون على العناد، واما هم مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات

نحن لانسوغ لانفسنا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم قليلا من علم اخلاق الناس ولا ندعي أنا نستطيع بالكلمات القليلة التي نقولها الآن بمساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علما جديدا واسعا ولكنا نستطيع أن نذكرهم بان أخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة بل منها ماهو في أسفل السفل ومنها ماهو في أعلى العلى ، ومن الناس من يغلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتياب بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل مافيه تمجيد اسم الفاطر جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم ان سيدتنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى تزحزح هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركوا معنا في معرفة أنه ليس محكوما على «خديجة» بالحرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بعلها

وأما المجبولون على العناد ، والغرور والاعجاب ، فلا نتعبهم بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتي علينا ثقيلة . فلهم دينهم فيما توقفهم فيه جبلتهم ولي ديني فيما يمشي معه قلبي

وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إن هذا معذور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لاني لا أطلب ان يترك ما بيده من النظريات بل أمشي معه في الحديث وهي في يده فنبلغ معه غاية حسنة تصلح ان تكون ملتقى لنا مهما تشعبت حولها آراء اخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك ياصاحبي ان الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالأدلة والآيات ، ولكن اذا سمعت بصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من قريب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين

أنت تعرف أن أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمدا (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ، وتعرف انهم كان لهم حلوم راقية رائقة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن أنهم صدقوه بغير آيات بينات ، وأدلة ساطعات ؟

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى ان يكون مشربك فيه كشرب الذين لا يعدون الآية الا الامر الخارق للعادة ولذا رأيت أن لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بعد ان اسلفت طريقة « خديجة » على النحو ين لتعلم كيف يمكن أن يكون ايمان كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

اذا وقع شيء خارق للعادة لا يستطيع احد حينئذ أن ينكر انه آية عظمى ولكن ماهي العادة وهل يمكن أن تخرق (أي تخالف) وهل وقع شي من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى في الكوائن. والذين بحثوا في امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم . والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من صور هذه الخوارق الاشيئا يسيرا جدا لا يصلح ان يلتفت اليه خصومهم فضلا عن أن تكون به قناعتهم

ان الله عز وجل سننا في كل موجود ،أو نقول ان لكل موجود عادة وطبيعة، والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون بالخوارق يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثا وتبقى هذه الارض على حالها ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه الحياة عينها متمتعين بحدائق وفوا كه، ولحوم وشحوم، ومياه جارية، وأزهار

زامية ،وصيف وشتاء وربيع وخريف ... الى آخره ... الى آخره ؟؟

أنا لا أعرف ماذا يقولون ولكني مع ايماني كايمانهم أو أكثر بعظيم قدرة الله تعالى يجدونني اذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقا لهم وقائلا اذا تغيرت سنة الله سبحانه في الشمس فصارت هي برغوثا تتغير سنته فيّ ايضا فأصير أنا غير انسان وغير باحث عن الخوارق

الذكي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع الملل لا يقف أمام نفخة من روح الله الحكيم اذا اراد عز وجل اعلان الغيرة على حكمته وسننه ، ويفهم أيضا أن الدين الذي هو من أكبر هدايا العناية الازلية لا يتوقف عليها اذ لو توقف عليها وكان لا بد في ظهور صدق المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تيسر تصديق أحد لان كل واحد حينئذ يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله، وناظم الكون سبحانه لم يشأ الى الآن نثره على ما يهواه المقترحون

الاقتراحات لا حد لها ولا عد ولا نظام ، هذا يقترح مثلا ان تصير الشمس برغوثا ، وآخر يقترح ان يصير المشتري عصفوراً ، وآخر يقترح ان يكون المريخ (طرطوراً) وآخر يقترح ان يصير القمر قرنا ، وآخر يقترح أن يكون عطارد عطاراً ، وآخر يقترح ان تكون الزهرة زهرة لا تذبل أبداً ، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية ، وآخر يقترح ان يصير البحر كله براً او البر كله بحرا والناس كلهم سمكات مؤمنات مصليات صائمات ، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهبا ، وتنبت عليه اشجار التفاح والليمون والاعناب والزيتون ، وآخر يقترح ان يصير الوقت كله ليلا وتحبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك ،

وآخر يقترح ان يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة ... الى آخره ... الى آخره ...

نعم ان مبدع منظومات الكون لم يشأ الى الآن نثرها ولا نستطيع ان نقول انه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فما معنى مباحثاتنا معشر البشر بانه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد ادعائنا بعدم تحدد قدرته وبعد سماعنا وحيه برشدنا بهذا الكلام العالي « فان تجد لسنة الله تبديلا وان تجد لسنة الله تحويلا »

بعد تقرير هذا اقول ان البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن الله تعالى او كل عادات الاشياء وطبائعها بل لا يستطيعون ان يعرفوا جميع اسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ، ثم هم لا يعرفون ايضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمده بصنوف الهدايات ، وأنه قد يشاء اعلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئا مثلا على خلاف ما تعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عادتها نثر المنظومات ومن امثلة ذلك ان النار شأنها الاحراق وقد تقتضي سنته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهدايته ان يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه

ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة ، وبديع الصنعة ، واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارئ أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها . وقصارى ما نقول إن الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المقترحون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول ان هذه الآيات فيها

تحويل لسنة الله تعالى او عادة الاشياء وطبائعها اذ لا تبديل لسنته سبحانه وانما فيها معونة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعبير بالخوارق الذي اصطلح عليه المدونون وان كانت المناقشة على الالفاظ بغيضة الينا وبعيدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات (كما عبر القرآن الحكيم) ويالله ما اكثر الآيات على أن ماأتى به هذا المختار هو فضل رباني وأمر روحاني

لقد أنبته الله نباتا حسنا ، وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب وهو غير شائن ذلك الاهاب حتى دخل الكهولة وتاق الى التكمل وفي هذه السن بدأه بتحبيب العزلة وتفريغ الفكر من الصور الفواني ليشرق فيه الجلال الذي لا يفنى ثم أعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله رجالا كثيرين من المصطفين كابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومن الآيات ان هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجده طلب منا أن نعبده من دون الله وانما قال لنا انا عبد الله جئتكم ببلاغ من عنده انه وحده له الحكم ، وانه وحده اليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا انا الحكم لوجدنا مقترحين عليه ان يجعلنا خالدين ، اذن لوجدناه عاجزا

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لا نستطيع عدها : جاءنا بالعلوم وهو امي ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له من الذكر مالم يرفع لمثله وجعل هديه باقيا ، وصوته عاليا ، وروح تأييده ساريا ، ولهذا ليس اليوم بنا من تعجب حين نسمع ايمان أقرب الناس منه واعرفهم به بل نحن بخديجة وابي بكر مقتدون ، ولربنا على هذه العنايات والآيات شاكرون ، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات ﴾

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ما ذكرناه الى الآن من سيرتها بل هي كالينابيع الثرور لا تغيض . والآن يشرف القارئ معنا على مجلي من اعظم المجالي لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لا نجده في كل عصر الا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات الغيث

لقد مر على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجد منهم ألوف الالوف ومن كل هذا العدد العظيم لا نعرف مئة ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بعلها الكريم فلا ينبغي أن نقيس به بعد ما قدمناه ثبات أحد فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الإلهي آمرا اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيما جدا منذ أتاه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الاعظم ، والمصطفى الاكبر ، فلذلك لا نرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات

ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرًّا ثم أمر أن يجهر بالامر فلم

يجد الى جانبه زوجة تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى بل وجد قرينة صالحة القلب للوقوف معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي الى غير ما عرف القوم وما أحوج هذه الحالة الى قلوب كلما كبر المعاندون كيدا تقول « الله اكبر » ؟!

الله اكبر ، كان المعاندون افرادا وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم النداوة فأصبحت نسمات الهدى تزعجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها ،

قريش وما قريش ؟! قبيلة ترى لنفسها السبق بكل فضيلة والشرف على كل فصيلة ، لها انوف شامخة كانها تطاول السماء ، وأعناق متامة كانها تتصيد كل علياء ، تماد كل قوم بالنجباء فتكثرهم ، وتفاخر من تشاء بالعظماء فتفخرهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعبيرا

هذه القبيلة التي حالها ما وصفنا من قوة الشكيمة وشدة الاباء ومزيد التعالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بحضرته اذ كانت بعض العقائد التي صادفتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها ، وانتهاكا لحرماتها

هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يبهر الناظرين ولكن قد تراكمت على افكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رأيناها تدرج مع البلداء في مدرج واحد من تأليه صور صماء عمياء بكماء جامدة قد صنعتها الأيدي فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتشفع ،

وراحت تعلن أن لهذه الصور مجدا ، وتستحق شكرا وحمدا ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتها من ذبح القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه القلوب ، وإخبات الصدور ، وتعلق القلوب

نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت الانفس فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الآلهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من تكريمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن لم تكن تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث ، وقد جرها الجهل بالله تعالى وسننه وآياته الى ماجر كثيرا من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق. واني ما أشبه نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوإ النهايات اذا لم تتداركه الاسباب من عناية الرءوف الرحيم جلت آلاؤه ، وتعالت أسماؤه

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة ـ سلسلة الجهل ـ يصل بها الى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند خيامهم ، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك . كاد الاتكال على الاصنام يعفّي كل اثار الفطرة منها ، ويطمس كل رسوم الذكاء ، ويذهب بما تركه فيها من المحاسين بعض فضلاء الاسلاف قبل عهدهم بهذه الآلهة التي فتنوا بها . أصبحت لا تمي ماهو فضل الله ، وماهي

رحمة الله ، وما هي عناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ماهو الروح ، وما هي خصائص الروح ، وما هي عبادة الروح للاحد المحيط بكل شيء ، وراحت معرضة عن العلم براقي الامم واتساع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من تتميم ارادة الفاطر باظهار البدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنايته عليها ، وأصبح قصارى مايجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين يشيلان في ميزان العقلاء : شيء يرضي به وهمه في التزلف الى تلك الحجارة التي اتخذها آلهة ، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي ، وأن تلك الكبرياء ، لا تجديهم شيئا اذا دهمهم داهم خارجي ، كما وقع لهم يوم «أبرهة»

هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته اصبحت قيدا لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون مادام موجودا أن يبرحوا ماهم فيه لان جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا

هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية الباريء أن تظهر آية عظيمة في قدها وتخليص تلك الفطر من قيدها ، واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الاسمي أن يكون ذلك بواسطة من انفسهم ، وأن تجري الهداية على سننها في الاولين فيلاقي الواسطة مايلاقي ، ويصبر مايصبر ، ويتم الله مايريد . ولذلك لما قام هذا المصطفى يعلن هذه الدعوة : اتي تلك الصوادم وماتلك الصوادم؟ جهل وغرور ، وكبرياء وعتو ، وقسوة وفظاظة ، وتعصب للمألوف ، ونفرة من الوعظ والنصح ، واباء أمام الانذار ، وطغيان وبهتان وعدوان ، واقدام على قتل الذي يذكر آلهتهم بما يكرهون

أي قلب لولا التأييد الرباني يجد الى الصبر سبيلا أمام هذه الصوادم ،

وأي ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقاء هذه الصوادم ، وأي امرأة غير «خديجة » ترى بعلها في جوف هذه النوائل ثم لا تزيده الا حمداً على القيام بوظيفته وايناساً بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود

أوذي (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الأذى لما أسمعهم الدعوة، تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والممترون ، من اقرب اقربائه ظهر الجافون المتباعدون عنه، والهازئون به والساخرون منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الالهي هو شعر جاء به الينا، وقد حشروا ما عرفوه من العيوب وأرادوا عزوها اليه لينفروا الناس منه وينتقموا لآلهتهم التي بدههم بجحودها، وكشف لهم عوار جمودها، وأيسر مافعلوه سبهم اياه والهزء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجافه

فعلوا كل هذا وهو متدرع بالصبر ،مثابر على الصدع بالامر ،وفي هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون الصبر من أجله ،وتهدي الى الاجيال الآتية اجمل صورة لثبات الجأش أمام الصعوبات

وياما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم فقد كانت العقبى ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره ولنعم عقبى الصابرين

— خلاصة الدعوة —

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :

(١) العلم بأن لاشيء يستحق التأليه الا الله الخلاق العظيم الذي

لا يشبه الحوادث ولا يشبهه شيء منها

(٢) العلم بأن هذا البارئ المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايات ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسل المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بان الايمان بهذا الرسول يقتضي الاذعان والتسليم الى كل ماجاء به

هذه أصول الدعوة التي كان مأمورا أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين «لا إله الا الله محمد رسول الله» فمن قالهما مطمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء المحمدية الذي يظلل مئات الملايين في يومنا هذا

والرسالة المحمدية لم تكن لقريش ولا للعرب خاصة بل هي للناس كافة ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عونا للدعوة لا عونا عليها

الفصل الرابع والعشرون

(بعد عشر سنين)

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالا وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان

كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من الفرح بنعمة الله ورحمته ، كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولاهم اعلاء شأنه ، كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطورا يسبونه وطورا يهزأون به ، وأحيانا يرجعون الى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه فيجدونه بعيدا عن المين وسائر المظان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقينهم في حظ عظيم من الطمأنينة وانشراح الصدر وفرح الضمير . كان الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمديين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأييدذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الابصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلمة اليه قلوبهم لا يتوكلون الا عليه ولا يأخذون الا بسننه . كان الجاحدون عكوفا حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله سبحان الله عما يصفون ، تعالى الله علوا كبيرا . كان الجاحدون كثيري الغم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الاذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة ، وذلة القلة عزة ،

وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شيء مثل مغادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم

كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصغير ، تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطيران اليه ، وتارة تلقي به على هذا المحيط الذي أنست به فتظل مرفرفة عليه ، وجانحة

الى المكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي يتمنى بقاءه ، وجاذب من امر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير

هل عرف القارئ من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا « خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة لا تفنى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية ، ولن تجد لك أيها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي

***

سبحان رب الكون هذا حكمه في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هذا الشخوص بها ترى زمنا وترجع للمحيط الواسع

لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها مانقلناه للقارئ والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تجلى اليوم على هذا العالم الذي مرت به وترى أن تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بعلها الكريم ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب وأصبحت برور الارض وبحورها مملوءة كل هذه العصور الى يومنا هذا بمن يقول من جميع اجناس البشر « لااله الا الله محمد رسول الله »

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة في أكثر أقاليم الارض والحمد لله ولكن هل تجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى أن كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها ؟ . فالسلام عليك ياأم المؤمنين ، سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة ياأماه

﴿ فهرس سيرة السيدة خديجة ﴾